الدرس الواحد والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

بابٌ قول الله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } [البقرة:١٦٥] .

وقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}

[التوبة: ٢٤] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾)) عقدها المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لبيان مكانة المحبة من العبودية ، وأنها أصل العبودية ، وأن المحبة كلما قويت في القلب قوي الإيمان والتعبد ، وكلما نقصت نقص من توحيد العبد بحسب ذلك .

ولما كانت بهذه المكانة والمنزلة العلية وهي محرِّكة للقلوب ، وهذا أمرٌ معروف أن الشيء الذي يحبه القلب ويُعمر بمحبته يتحرك في طلبه ونيله وتحصيله ونيل مراضيه ومحابه ، فلما كانت بهذه المكانة عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيانها ، وبيان أن المحبة التي هي محبة العبودية التي تقتضي الذل والخضوع وكمال الطاعة لا تكون إلا لله ، ولا يجوز صرفها إلا له سبحانه وتعالى ، ومن صرفها لغيره جل وعلا فقد أشرك بالله الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

وبدءً من هذه الترجمة وعددًا من التراجم التي تأتي بعدها عقدها رحمه الله لبيان العبودية التي تتعلق بالقلب؛ فبدأ أولًا بالمحبة باعتبار أنها أصل عظيم جداً في التعبد ، وهي ركن من أركان التعبد القلبية ، ثم أتبعها بذكر الخوف والرجاء ونحو ذلكم من العبوديات القلبية ؛ وهذا تنبيه وبيانٌ من المصنف رحمه الله تعالى لمكانة أعمال القلوب من توحيد الله ، وأن العبد كما أنه يجب عليه أن يصون جوارحه من أن يصرف في شيءٍ منها عبودية لغير الله تبارك وتعالى فإن عليه كذلك أن يصون باطنه وقلبه وسره فلا يكون فيه عبودية إلا لله جل وعلا ، مثل المحبة محبة العبودية والرجاء والإنابة والتوكل والخشية والرجاء وغير ذلكم من عبوديات القلب ؛ فهذه حق لله تبارك وتعالى لا تُصرف لغيره ، وصرفها لغيره شرك بالله تبارك وتعالى .

وجعل عنوان هذه الترجمة هذه الآية الكريمة لأنها دالة على مقصود هذا الباب تمام الدلالة ؛ وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] والمراد بالناس هنا : أهل الشرك بالله تبارك وتعالى .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ ؛ أنداد : أي نظراء وشركاء لله سبحانه وتعالى يسووهم بالله في المحبة ، وهذا معنى قوله ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أي: يحبون أنداهم محبةً مساوية للمحبة التي لله ، بمعنى أن في قلوبهم محبة لله عظيمة وأيضاً في الوقت نفسه في قلوبهم محبة للأنداد عظيمة مثل محبة الله ، فالكاف في قوله ﴿ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ بمعنى مثل، وهي تعني التسوية والمماثلة، ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ : أي يحبونهم محبةً مساوية لمحبة الله تبارك وتعالى ، ولهذا لما وُجد فيهم هذا الحب لأندادهم المساوي والمماثل لمحبة الله أصبحوا يصرفون أنواع العبودية التي لا تُصرف إلا لله أصبحوا يصرفونها للأنداد؛ من ذل وخضوع وانكسار ورجاء ورغب ورهب وغير ذلك من أنواع العبوديات .

قال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ تفيد الآية أن المشركين يحبون الله ومحبتهم لله عظيمة كبيرة لكنها ليست خالصة ، جعلوا مع الله فيها شريكاً مساويًا لله تبارك وتعالى ، ولهذا رُدَّت عليهم هذه المحبة جملةً وتفصيلا وأصبحوا من أهل النار من مات على ذلك يكون من أهل النار مخلداً فيها أبد الآباد كما قال الله في السياق نفسه: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ، لأنهم سووا غير الله بالله تبارك وتعالى في المحبة محبة العبودية التي تقتضي الذل والخضوع والانكسار وكمال الطاعة .

قال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ؛ الذين آمنوا أشد حباً لله تبارك وتعالى من حب المشركين لله ، وأيضا هذا الجزء الآخر من الآية يدل على أن المشركين يحبون الله ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ لأن حبهم لله خالص لم يجعلوا مع الله تبارك وتعالى فيه شريكاً ، لم يجعلوا لغير الله فيه شركة ، لم يجعلوا لغير الله فيه حظاً ولا نصيباً ، محبة خالصة . قال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ أي أشد حباً لله من المشركين ، لأن المشركين يحبون الله لكن محبتهم لله ليست خالصة بل جعلوا لغير الله حظاً ونصيبا منها ، بل سوّوا غير الله بالله فيها ، ولهذا يوم القيامة عندما يدخل أهل هذه التسوية في المحبة لغير الله بالله عندما يدخلون النار يندمون على ذلك ويعلنون ندامتهم قائلين وهم في النار : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] ، بأي شيءٍ سوّوا الأصنام برب العالمين ؟ هل سووهم بالله باعتقاد أنها تخلق مثل الله وترزق تدبر ؟ لا ؛ هؤلاء القوم إذا سُئل الواحد منهم من الخالق ؟ من الرازق؟ من

المتفرد بالخلق بالرزق؟ يقولون الله ، لكنهم سووا غير بالله بالله في المحبة كما هو واضح في هذه الآية الكريمة التي هي عنوان هذه الترجمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي : محبة مساوية لمحبة الله ، ولهذا يقولون يوم القيامة ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . مثلها أيضاً في الدلالة على المعنى نفسه قول الله تعالى : ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام:١] أي : يجعلون غيره عِدلاً له ؛ أي مماثلا له ومساوياً له .

وهذه المحبة التي ذُكرت في هذه الآية الكريمة هي محبة العبودية ، ومحبة العبودية لا يجوز صرفها إلا لله ، ومحبة العبودية : هي تلك المحبة التي تقوم في القلب مقتضيةً مستلزمةً ذلاً وخضوعاً وانكساراً وكمال طاعةٍ وتذللٍ وتعبُّد ، فهذه حق لله تبارك وتعالى ليس لأحدٍ فيها أي حظ ، لا لملَك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عمن هو دونهما ، وإنما هي حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن تُصرف لغيره .

- وهذه تسمى أيضاً «المحبة الخاصة»؛ لأنها خاصة بالله لا يستحقها أحد سواه كائناً من كان ، خاصة برب العالمين لا يجوز أن يسوَّى بها غيره وهي محبة العبودية ؛ المحبة التي تقتضي الذل والخضوع وكمال الطاعة هذه خاصة بالله .
- وثمة نوع آخر من المحبة يسمى «المحبة المشتركة» ؛ لا شيء في وجودها في الإنسان ، مثل محبة الجائع للطعام والعطشان للماء ، هذه محبة تسمى محبة طبيعية .
- هناك أيضا محبة تقوم في القلب تسمى «محبة الشفقة والرحمة والحنان»؛ مثل محبة الأم لولدها.
- هناك محبة تقوم في القلب تسمى «محبة الإلف والأنس» ؛ هذه أيضا مثل محبة الرفيق لرفيقه والصاحب لصاحبه، هذه محبة طبيعية ولا حرج في وجودها في قلب الإنسان لأنها محبة طبيعية ومحبة مشتركة .

أما المحبة الخاصة فمن صرف شيئا منها لغير الله كان مشركا الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام . وضابط المحبة الخاصة: أنها محبة العبودية التي تقتضي الذل والخضوع وكمال الطاعة ؛ فهذه حق لله تبارك وتعالى لا يجوز أن تصرف لغيره جل وعلا .

أورد رحمه الله تعالى قول الله عز وجل : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[التوبة:٢٤] أي : انتظروا ما يحل بكم من عقوبة الله جزاء تقديمكم لمحبة هذه الأشياء أو شيء منها على محبة الله تبارك وتعالى .

وهذه المذكورات في الآية الكريمة ثمانية أمور جُبلت النفوس على محبتها ، وكل إنسان يقوم في قلبه حب لهذه الأشياء ؛ حبٌ للوالد والولد والأهل والعشيرة والتجارة والمسكن ..كل إنسان جُبل على محبة هذه الأشياء ، ولا شيء في وجود هذه المحبة في قلبه ولا حرج عليه في ذلك ، وهي محاب ثمانية ذُكرت في الآية جُبلت النفوس على حبها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي حصَّلتموها واكتسبتموها.

﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ أي بوارها وعدم نفاقها.

﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أي تعجبكم جميلة وحسنة وبهية ويأنس الواحد منكم إذا ذهب إلى بيته ويرى أن البيت جميل والأثاث جميل وما إلى ذلك ﴿ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أي تحبونها وتستحسنونها ؛ لا شيء في حب الإنسان لهذه الأمور والقلوب جُبلت على ذلك ولا ملامة على أحد في حبه لهذه الأشياء ، ونبينا عليه الصلاة والسلام قال في الحديث : ((حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ)) هذه أيضاً داخلة في الباب ؛ المحبة الطبيعية جبلت القلوب على حب مثل هذه الأشياء . لكن الوعيد في تقيم هذه الأشياء أو شيء منها على محبة الله ومحبة رسوله ، قال: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ ؛ أما ما دون ذلك لا حرج عليكم ، لكن الخطورة والوعيد عندما تكون هذه الأشياء أو شيء منها ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي انتظروا وعيد الله ، انتظروا عذاب الله ، انتظروا عقوبة الله . وهذا دليل على أن هذا الأمر من عظائم الذنوب ومن كبائر الآثام ، ولهذا تُهدد من كان كذلك بهذا الوعيد .

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » أخرجاه .

****

هذا الحديث حديث أنس رضي الله عنه في بيان وجوب محبة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وليس هذا فقط بل وتقديمها على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، وأنه لا يؤمن العبد إلا إذا كان كذلك ؛ إلا إذا كان مقدِّماً لمحبة النبي عليه الصلاة والسلام على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، بل وأيضاً على محبة النفس كما في حديث عمر ابن الخطاب في صحيح البخاري عندما قال رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام : « يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي» ، فَقَالَ عليه الصلاة والسلام: ((لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)) قال عمر ؟ «فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي» قَالَ: ((الآنَ يَا عُمَرُ)) ؛ فيجب

على العبد أن يحب النبي عليه الصلاة والسلام محبةً مقدَّمة على محبته لنفسه ووالده وولده والناس أجمعين . والأشياء التي ذُكرت في الآية المتقدمة الآباء والأبناء والتجارة والعشيرة والمساكن وغير ذلك هذه كلها لا حرج في حبها لكن يجب أن تقدَّم محبة النبي عليه الصلاة والسلام على محبة هذه الأشياء .

ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام تبعٌ لمحبة الله ، الأصل محبة الله ، ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم تبعٌ لمحبة الله تبارك وتعالى ، كما أن طاعته من طاعة الله ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء:٨٠] ومعصية الرسول عليه الصلاة والسلام من معصية الله ومحبته من محبة الله تبارك وتعالى ؛ ولهذا في الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام وهو دعاءٌ عظيم يجدر بالمسلم أن يحفظه وأن يحافظ عليه «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ» ؛ أسألك حبك هذا هو الأصل ، حب الله تبارك وتعالى هو الأصل وينبغي أن يميل القلب بكليته إلى الله حباً وتعظيماً وإجلالا وخضوعا وذلاً وانكساراً ، ثم بعد ذلك تأتي فرع وتوابع لهذه المحبة يأتي في مقدمتها محبة النبي صلوات الله وسلامه عليه؛ الذي محبته من محبة الله تبارك وتعالى . ويجب أن تكون هذه المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم مقدَّمة على محبة الوالد والولد والناس أجمعين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**لا يؤمن أحدكم**)) وهنا نفيٌ للإيمان ، قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ، والعمل الذي ذُكر في الحديث عمل من أعمال القلوب ، المحبة عمل قلبي المحبة عمل من أعمال القلوب ، وإن لم توجد هذه المحبة على هذا الوصف فالإيمان منفي كما في الحديث ؛ فهذا دليلٌ على دخول أعمال القلوب ومنها المحبة في الإيمان ، مثل دخول الحياء وهو من أعمال القلوب في الإيمان بدليل قوله ((وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ)) ، فهذا فيه دليل على دخول أعمال القلوب في الإيمان.

ثم نفي الإيمان هنا قال ((**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده ووله والناس أجمعين**)) ما المراد به؟

هل المراد بنفي الإيمان نفي أصل الإيمان؟ أو نفي كمال الإيمان المستحب؟ أو نفي كمال الإيمان الواجب؟

القاعدة عند أهل العلم في هذا الباب : أن الإيمان لا يُنفى إلا في فعل محرم أو ترك واجب ، لا يأتي نفي الإيمان في ترك مستحب أو فعل مكروه مثلا ، فالقاعدة أن الإيمان لا ينفى إلا في فعل محرم أو ترك واجب من واجبات الدين ، فالنفي هنا في قوله ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) نفيٌ لكمال الإيمان الواجب ، والمعنى : لا يؤمن أحدكم الإيمان الذي تبرأ به ذمته ويسْلم فيه من العقوبة يوم يقف أمام الله تبارك وتعالى حتى يأتي بهذه الخصلة : أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين .

ثم إن من السهل على كل إنسان ومن اليسير على كل لسان أن يقول "إني أحب الرسول عليه الصلاة والسلام محبة مقدَّمة على الوالد والولد والناس أجمعين وعلى نفسي" هذه سهلة جدا ، نُطقاً بها وتلفظاً بها أمرها سهل جدا، من السهل على الإنسان أن يقول ذلك أو أن يدَّعي هذه الدعوى ، لكن العبرة المطلوب هنا في الحديث

ليس بمجرد الدعاوى ، ليست العبرة بمجر الدعوى أو مجرد أن يقول ذلك بلسانه أو يحلف حتى يقول "والله إني أحب الرسول عليه الصلاة والسلام محبة مقدمة على نفسي وولدي والناس أجمعين" ، بل لابد أن تكون هذه المحبة قائمة فعلا وصدقاً في القلب ، ويكون فعلا قائم في قلبه محبة للرسول عليه الصلاة والسلام وتكون مقدَّمة على محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، والله عز وجل جعل لعباده في كتابه علامة يعرفون من خلالها مدى صدق هذه المحبة في قوله جل وعلا ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] ؛ هذه الآية يسميها أهل العلم «آية المحنة» ، ما معنى ذلك ؟ أي من ادَّعى محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام فليمتحن نفسه في ضوء هذه الآية في ضوء قوله ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ؛ لينظر في عمله هل هو يصدِّق ما يدَّعيه من نفسه من محبةٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن عمله لا يصدِّق ذلك؟.

ومن المعلوم في شأن المحبة أنها محرك ، من أعظم محركات القلوب للعمل المحبة؛ المحبة محرك ، ولينظر ذلك الإنسان في محبته للأشياء كيف أنه إذا أحب شيئاً تحرك في طلبه وسعى في تحصيله ، وكلما قوي المحبة قوي التحرك ، المحبة من أعظم محركات القلوب ، فإذا قام في القلب فعلاً محبة صادقة للنبي عليه الصلاة والسلام مقدَّمة على محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين لابد أن تظهر علامة ذلك اتباعاً له وسيراً على نهجه وترسماً لخطاه ، أما أن يدَّعي الإنسان محبة أنه يحب الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يكون في وادٍ آخر غير مطيع له ولا متبعٍ له ولا متمسك بسنته هذا دليلٌ على عدم مصداقية هذه المحبة كما قال القائل :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه	هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته	إن المحب لمن أحب مطيــع

ولهما عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » ، وفي رواية : «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى..» إلى آخره .

****

وهذا الحديث أيضا حديث أنس رضي الله عنه وهو أيضاً في الصحيحين ولهذا قال المصنف ((**ولهما**)) أي البخاري ومسلم ((**عنه**)) أي أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**)) أنظر هذا التشويق من نبينا عليه الصلاة والسلام لهذه الخصال العظيمة ؛ «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» أي أن الإيمان له حلاوة ، له طعم لذيذ ، له مذاق جميل ، طعم حلو طعم جميل مذاق جميل لكن ليس كل أحد يجده ، من الذي يجده؟ قال من اتصف بهذه الصفات وتحلى بهذه الخصال

((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان)) ، فإذًا حلاوة الإيمان وطعم الإيمان لا يناله كل أحد وإنما يناله من كان متصفاً بهذه الصفات المذكورات في الحديث .

والإيمان شُبِّه في القرآن بالشجرة الطيبة كما في سورة إبراهيم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥] ؛ تؤتي أكلها : أي ثمارها وجناها كل حين ، وجاءت السنة في الصحيحين وغيرهما مفسرةً للآية مبينةً أن المراد بالشجرة هنا في الآية النخلة دون غيرها من الشجر ، والنخلة كما هو معلوم تثمر ثمراً حلواً ؛ التمر ، والتمر مذاقه حلو . ولما كان مثل الإيمان مثل الشجر ، ومثله مثل النخلة ، والنخلة لها ثمر وثمرها حلو فكذلك الإيمان الذي شُبِّه بالنخلة في القرآن الكريم له طعمٌ ، مثل ما أن النخلة ثمرة لها طعم حلو فالإيمان له طعم حلو ؛ لكن من الذي يذوق هذا الطعم؟ ومن الذي يفوز بهذه الحلاوة؟

قال: ((**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**)) ؛ فذكر خصالاً ثلاثة : الأول الأصل ، والثاني الفرع ما يتفرع عن هذا الأصل ، والثالث دفع المضاد، ما يضاده . وبهذه الأمور الثلاثة يكتمل الإيمان ويجد العبد حقيقة الإيمان مثل ما في الرواية الأخرى : لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان إلا بهذه الخصال الثلاثة لأنها بها يكتمل .

- الأصل: محبة الله ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وعرفنا أن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام تبعٌ لمحبة الله .
- والأمر الثاني: ما يتفرع عن هذه المحبة ((أن يحب المرء لا يحبه إلا لله)) .
- والأمر الثالث: دفع ما يضاد ذلك قال ((أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) .

إذاً هذه خصال ثلاثة :

الأولى : ((**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**)) أي أن يحب الله ويحب رسوله عليه الصلاة والسلام محبة مقدمةً على محبة ما سواهما ، مثل ما مر معنا في الآية ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ؛ فمحبة الله ومحبة رسوله تكون في القلب مقدَّمةً على محبة ما سواهما .

والخصلة الثانية : ((**أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**)) ؛ وهذا كما جاء في الحديث الصحيح أوثق عرى الإيمان ، قال عليه الصلاة والسلام: ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِيهِ)) . قال : ((أن يحب المرء لا يحبه إلا لله))

لا يحبه لرئاسة ولا لتجارة ولا لمصلحة ولا لمنفعة معينة وإنما يحبه لله ، ولماذا أحبه لله ؟ لما رأى فيه من طاعة وعبادة وإقبال على الله سبحانه وتعالى ؛ فيحبه لله تبارك وتعالى متقرباً بهذه المحبة إلى الله جل وعلا .

والخصلة الثالثة : ((**أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**)) بمعنى أنه يكون عنده متساوي ، أمران : العود إلى الكفر ، والقذف في النار ؛ هذه أمران متساويان عنده ، العوْد في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه والإلقاء في النار ، ومن الذي يقوم في قلبه محبة أن يلقى في النار!! قال : ((أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)) .

فإذا قامت هذه الخصال الثلاثة وجد بهن العبد حلاوة الإيمان .

قال ((**وفي رواية**)) وهي عند الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح بلفظ ((**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى**)) وذكر هذه الخصال الثلاث .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان– وإن كثرت صلاته وصومه– حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئا)) رواه ابن جرير .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال ((رواه ابن جرير)) أي الطبري رحمه الله تعالى قال رضي الله عنه: ((**من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك**)) ؛ ولاية الله أي: لعبده بأن يكون ولياً لله من أولياء الله الذين يتولاهم جل وعلا بالحفظ والتوفيق والتسديد والمعونة ، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ)) ، فولاية الله التي تقتضي حفظ الله للعبد ونصره وتأييده وعونه وتسديده لا تنال إلا بذلك ؛ أي بهذه الخصال المذكورات .

((**من أحب في الله وأبغض في الله**)) من أحب في الله : أي أحب من يحب في الله، لا يحبهم لدنيا أو لمصلحة أو نحو ذلك وإنما يحبهم في الله أي لما كانوا عليه من طاعة وعبادة وامتثالٍ لأمر الله تبارك وتعالى فهو يحبهم في الله ؛ لأنه رأى فيهم الطاعة والعبادة والإقبال على الله سبحانه وتعالى فأحبهم لذلك ، وهذا كما مر أوثق عرى الإيمان ، في الحديث الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِيهِ)) ، في الحديث الآخر قال : ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)) .

قال ابن عباس : ((**من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله**)) أي كانت موالاته ونصرته في الله ولأجل الله تبارك وتعالى ، ((**وعادى في الله**)) : أي كانت معاداته لمن يعادي لله عز وجل ومن أجل الله عز وجل لا لهوى ولا لأمر آخر وإنما هي في الله جل وعلا .

((**فإنما تنال ولاية الله بذلك**)) ولاية الله أي توليه عبده نصرا وحفظا ومعونة وتأييدا وتسديدا لا تنال إلا بذلك .

ثم قال مؤكداً على هذه الخصال العظيمة : ((**ولن يجد عبد طعم الإيمان- وإن كثرت صلاته وصومه- حتى يكون كذلك**)) ويشهد لكلام ابن عباس هذا الحديث الذي مر معنا -حديث أنس- قول النبي عليه الصلاة والسلام ((لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى)) مر معنا . قال : ((ولن يجد عبد طعم الإيمان)) أي لذة الإيمان وحلاوة الإيمان ((وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك)) أي حتى يكون متحليًا بهذه الخصال متصفا بهذه الصفات .

ثم يقول رضي الله عنه : ((**وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا**)) هذا يقوله رضي الله عنه في زمانه يقول «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا» ؛ عامة: أي أغلب وأكثر المؤاخاة التي تكون بين الناس صارت في أمر الدنيا ، يقول ذلك في زمانه ذلك الزمان المتقدم القريب من عهد النبوة!! يقول «صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا» وهذا من فقه السلف رحمهم الله للواقع الذي هم فيه وحال الناس الذين يعيشون معهم وأمرهم من حيث الإيمان والعبادة والإقبال على الله سبحانه وتعالى قال : ((وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا)) : أي يصبح تآخي وتحاب وتآلف ، لكن هذه المؤاخاة وهذا التحاب وهذا التآلف لمطامع دنيوية وأغراض دنيوية مصالح دنيوية ، إذا انتهت تلك الأغراض لم يبق ذلك التآخي ولم يبق ذلك التحاب ولم يبق ذلك التواد وإنما ينتهي بانتهاء المصلحة أو الحاجة التي وُجد ذاك التآخي أو ذاك التحاب لأجلها ((صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا)) .

قال : ((**وذلك لا يجدي على أهله شيئا**)) أي لا يحصِّلون من ورائه نفعاً ، لا يجدي على أهله شيئا وإنما الذي يُجدي أن يقبِل الإنسان على الله خضوعًا وذلًا ومحبَّة لله تبارك وتعالى ؛ يحب في الله ويبغض في الله ويوالي في الله ويعادي في الله ، الأرزاق بيد الله والأمور كلها بيد الله ، هو جل وعلا المعطي المانع الخافض الرافع القابض الباسط المعز المذل الذي بيده أزمة الأمور جل في علاه ، أما مؤاخاة الناس لأمر الدنيا لا يقوم في قلبه حبا في الله ولا بغضا في الله ولا معاداة في الله ولا بغضاً في الله!! هذا لا يجدي على أهله شيئا ، ولن يحصِّل عبدٌ من الدنيا إلا ما كتب الله له ، وليست تلك المؤاخاة بالتي تجلب له رزقًا لم يكتبه الله له أو مصلحةً أو منفعة لم يكتبها الله تبارك وتعالى له . ولاشك أن مثل هذه المعاني وجودها في القلوب من دلائل ضعف الإيمان . قال ((وذلك لا يجدي على أهله شيئا)) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:١٦٦] **قال : المودة .**

****

هذه الآية وتفسير ابن عباس رضي الله عنهما لها ختَم به رحمه الله تعالى هذه الترجمة ، وفيه تقريرٌ لما سبق في آخر كلام ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال : ((وذلك لا يجدي على أهله شيئا)) .

قال : ((**وقال ابن عباس قي قوله : { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } قال ابن عباس : المودة**)) أي أن المودة مهما قويت والمحبة مهما عظمت في القلوب إن لم تكن في الله ولأجل الله فإنما مصيرها ومآلها أن تتقطَّع وتنتهي ، لأن الذي يبقى ما كان لله ، فما كان لله دام واتصلا وما كان لغيره انقطع وانفصلا ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] ، أما ما سوى هؤلاء فإن المحبة مهما عظمت وقويت وكبرت فإنها تتقطَّع بل تستحيل عداوة وتتحول إلى بغضاء ؛ هذا معنى قوله جل وعلا ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أي أسباب المودة ، تلك الوشائج والروابط والصلات القوية التي كانت بينهم كلها تنتهي ولا يبقى منها شيء إلا ما كان من المحبة في الله .

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية البقرة .

وقد تقدم تفسيرها وهي قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ .

الثانية : تفسير آية براءة .

وهي قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾ إلى تمام الآية ، وقد مر أيضاً تفسيرها .

الثالثة : وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال .

ويدل على هذا الوجوب قول الرسول عليه الصلاة والسلام كما في حديث أنس : ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) ، وقوله «على النفس» هذه يدل عليها حديث عمر بن الخطاب وهو في صحيح البخاري كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

الرابعة : أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

«أن نفي الإيمان» أي في قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أنس ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)) «لا يدل على الخروج من الإسلام»؛ لأن النفي هنا نفيٌ لكمال الإيمان الواجب وهو الإيمان الذي تبرأ به الذمة ويسلم به العبد من العقوبة ، ومن لم يكن فيه ذلك فإنه عرضة لعقوبة الله تبارك

وتعالى ، فليس النفي هنا نفيٌ لأصل الدين وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان الواجب الذي لا تبرأ الذمة ولا تكون السلامة من العقوبة إلا بوجوده .

الخامسة : أن للإيمان حلاوةً قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

والدليل على ذلك الحديث ؛ حديث أنس ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان)) ، إذاً معنى ذلك إن لم يكنَّ فيه أو لم تكتمل فيه هذه الخصال لا يجد حلاوة الإيمان، لأن وجود الحلاوة مرتبط بوجود هذه الخصال ، ولهذا قال الشيخ رحمه الله «الإيمان له حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها» ، فهو يجدها إن وجدت فيه هذه الخصال، ولا يجدها إن لم توجد فيه هذه الخصال .

السادسة : أعمال القلب الأربع التي لا تُنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحدٌ طعم الإيمان إلا بها .

أعمال القلوب الأربع أي التي جاءت في أثر ابن عباس ((من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله، وعادى في الله)) فهذه الأعمال القلبية الأربع لا تُنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أيضاً طعم الإيمان أي حلاوته إلا بها كما تقدم معنا في أثر ابن عباس رضي الله عنهما .

السابعة : فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

فهم الصحابي للواقع ؛ الصحابي : ابن عباس الذي تقدَّم في الأثر الذي ساقه المصنف رحمه الله . فهمه للواقع أي واقع الناس عندما بيَّن مكانة هذه الخصال الأربع وأن ولاية الله لا تنال إلا بها ولا يجد طعم الإيمان إلا إذا وُجدت؛ فبيَّن في أثناء ذلك أن عامة المؤاخاة بين الناس على أمر الدنيا ، فهذا من فهمه ودرايته ومعرفته بواقع الناس .

الثامنة : تفسير {وتقطعت بهم الأسباب} .

تفسير هذه الآية التي ختم بها رحمه الله الترجمة مر معنا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (المودة) .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً .

وهذا مستفاد من قوله جل وعلا : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ؛ أي يحبونهم محبة عظيمة مساوية لمحبة الله. ثم في قوله بعدها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أشد حباً لله أي: من حب المشركين لله ، فهذا فيه إثبات أن عندهم محبة شديدة لله لكنها محبة ليست خالصة أشركوا مع الله فيها غيره

فرُدَّت عليهم ولم تُقبل منهم ، وكانوا بسبب ذلك من أهل النار مخلَّدين فيها أبد الآباد ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ، وعلى هذه التسوية يندمون يوم القيامة ويعلنون الندامة وهم في النار كما مر معنا في قولهم الذي ذكره الله: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] .

العاشرة : الوعيد على من كانت الثمانية عنده أحب إليه من دينه .

الثمانية : أي المذكورات في آية براءة ، وهي ثمانية أمور جُبلت النفوس على حبها ولا شيء في ذلك ، لكن الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه فهذا الذي جاء الوعيد في حقه في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة:٢٤] .

الحادية عشر : أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

خاتمة هذه المسائل: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر أي : الناقل من ملة الإسلام ، وقد مر معنا في صدر هذه الترجمة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي يحبونهم محبةً مساوية لمحبة الله تبارك وتعالى ، وهذا شرك أكبر ناقل من ملة الإسلام ، والسياق نفسه دل على ذلك ، لأن الله عز وجل قال في شأن هؤلاء: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ، وهذا الذي يُحكم في حقه أنه يدخل النار ولا يخرج منها بل يخلد فيها أبد الآباد هم المشركون الكفار كما قال الله في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦] .

وبهذا تنتهي هذه الترجمة وما ساقه فيها رحمه الله من أدلة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ونقلٍ لبعض المأثور ثم أيضاً المسائل التي ساقها رحمه الله تعالى مستفادةً من هذه الترجمة .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .